السقوط فى الخطية

لأول مرة نُشرت

الخليقة 4 (3) : 35 - 39

أكتوبر 1981

بقلم "نويل ويكس"

صدق المثل القائل الألفة تولد الاحتقار . من منا لا يعرف قصة وقوع الإنسان الأول فى الخطية ؟ قصة "آدم" و"حواء" نسجت خيوطها فى ثقافتنا من خلال الأمثال الشائعة والنكات والتلميحات الأدبية وفى الفن بجميع صوره وأصبحت مبتذلة ومعروفة وفقدت قدسيتها لأن تصور أصل الإنسان من وراء تلك الحكاية مرفوض الآن من الافتراضات التى تضعها نظرية التطور لدرجة أن قصة "آدم" و"حواء" أصبحت اليوم غير شائعة .

إننا نادرًا ما نتوقف لننبش فى عمق ومعنى الشىء المألوف . فمن المعروف أن هناك بعض أجزاء من الكتاب المقدس يصعب الإيمان بها عن الأجزاء الأخرى . لقد استغرقت سنوات لأقبل - وأنا مؤمن - صدق قصة خلق الرجل والمرأة حرفيًا . ولذلك لا أريد أن أقدمها كأمر تؤمن به بالفعل ، بمعنى لا بد أن تؤمن بها لكنى لا أدينك بدون أن أدين نفسى . إدراك وفهم هذه القصة وحدها يفسر حالة الإنسان الحالية التى قادتنى لإدراك صدقها .

الله وضع الإنسان فى الجنة وأعطاه مهمة (يعملها ويحفظها) ومنعه عن شىء واحد "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت" (تكوين 2 : 17). **الإنسان قد خُلق ليتسلط على الحيوان ، خُلق ذكرًا وأنثى والكتاب المقدس يحكى لنا عن كمال وحدة هذين الزوجين . قال "آدم" : "هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى" . وكانا عريانين ولا يخجل أحدهما من الآخر . هذان عضوان من الطاقم ، الرجل والمرأة ، الشخصيتين الأخريتين هما الحية والشجرة .**

الكتاب المقدس تمت كتابته ككتاب مدرسى للإنسان ومثله مثل أى كتاب من هذا النوع لا يتوقع من الطالب أن يفهم كل شىء من الفصول الأولى . هناك عدة أسئلة تُترك بدون إجابة ليُنظر فى أمرها لاحقًا . وجود ثعبان يتكلم كان ظاهرة فى منتهى الغرابة لأن الكتاب المقدس ليس

كأساطير "إيسوب" .

يفرق الكتاب المقدس بين الإنسان والحيوان ، رأينا فى الفصل السابق أن "آدم" دعا بأسماء جميع الحيوانات . (من الواضح أن الحيوانات لم يكن باستطاعتها فعل ذلك بنفسها !) حية متكلمة تتعارض مع قصة الخليقة . فالحيوانات التى تتكلم تنتمى أكثر إلى الوثنية التى ليس لديها أدنى مفهوم عن الخليقة ومع ذلك لا نكتشف إلا فيما بعد أن الحية كانت أداة لقوة أخرى. فى تكوين 3 تم حذف كل ما ليس له صلة بالأحداث . كل ما يُحكى هو أن شخصية الحيوان كانت ملائمة للقوة التى استخدمته ونعلم أن الله خلقه حيوان برية . هذه نقطة هامة لأن كان هناك نظام للسلطة فى الخليقة : الإنسان متسلط على الحيوان والإنسان متسلط على الخليقة .

خطط الشيطان لاعتراض هذا النظام : ياخذ أحقر الحيوانات ويعطى لهذا الحيوان السيادة على الإنسان . أراد للإنسان أن يسمع ويطيع أحقر الحيوانات بدلاً من أن يسمع ويطيع الله فاقترب من المرأة أولاً ليدفعها لتقود زوجها إلى الضلال وبهذا يشوش على السلطان الطبيعية الذى للرجل على المرأة .

الشخصية الباقية هى الشجرة . لم يفرق الكتاب المقدس بين المعلومة النظرية المجردة وبين التجربة العملية التى نميل إلى صنعها . معرفة الخير والشر تعنى أمرين: معرفة شيئًا عنهما ومعرفته بالتجربة العملية . اسم الشجرة مناسب لوظيفتها لأن إذا رفض الإنسان الإغراء فسيعرف الخير والشر بالتجربة أى باختيار الخير ورفض الشر . و سيتضح له التناقض بين الاثنين . لكن من الناحية الأخرى إذا رفض الخير واختار الشر فسيعرف الخير والشر بعد تجربة مريرة جدًا .

قد يبدو أمرًا غريبًا أن يضع الله مثل تلك التجربة أمام الإنسان لكن ليس من الخطأ أن يعطى الله له فرصة ليُظهر طاعته ثم ينال بركة عظيمة . بعد ذلك امتحن الله "إبراهيم" ليقدم ابنه "إسحق" ثم باركه بركة عظيمة مكافأة على طاعته . بالرغم من ذلك فإن دافع الشيطان كان مختلفًا جدًا ، لم يخطىء الإنسان فى الاستماع إلى التجربة وليس خطية أن يُجرب ، الخطية كانت فى الانصياع إلى التجربة .

خطة إبليس كان زرع الشك فى ذهن المرأة حول كرم الله . كان على المرأة رفض الحية المتكلمة لأنها كانت مناقضة لنظام وترتيب الخليقة . ربما بدا سؤال الشيطان بريئًا فى حد ذاته لكنه سلط الضوء على النهى . بدلاً من التركيز على كرم الله فى إعطاء كل هذه الثمار للإنسان زرع الشك حول لماذا لا يسمح الله لهما بأكل جميع الثمار .

هناك نقطة منطقية واضحة بخصوص الهجوم الضمنى على صلاح الله . الأمر يشبه الرجل الذى لديه منزل عصرى بطابقين وسيارتان لكنه يشعر بالمرارة تجاه الله لأنه لا يجنى مالاً كافيًا لشراء يخت . تابعت الحية الشك الذى زرعته بهجوم صريح فى السؤال التالى . "كلام الله ليس صادقًا . لن تموتا . الغيرة وحدها هى الدافع وراء سلوك الله هذا . فهو يريد أن يمنع عنكما ما هو الأفضل لكما" . لا بد أن نعترف أن هناك شيئًا من الصدق فى أقوال الشيطان . معرفة الخير والشر بالتجربة الواقعية لنبذ الشر دائمًا واختيار الخير صفة مميزة لله فقط . لكن كما قال الكتاب فإن كلام الشيطان كذب ، فهو كذاب منذ البدء لأن"آدم" و"حواء" لن يصبحا كالله لأنهما كانا سيعرفان مشقة رفض الخير واختيار الشر .

أغواهما الشيطان ليصبحا كالله بأن تصير فى يدهما كل السلطة . أغواهما برفض الله كالسلطة العليا وبوضع سلطتهما فوق سلطة الله . وهكذا تزايدت حدة التجربة من الشك فى صلاح الله وكرمه ، من عدم تصديق أقوال الله التى حذرت من أن الخطية ستجلب الموت ، من الرغبة فى حل محل الله كالسلطة العليا وإطاعة نزوتهما بدلا من كلام الله فجاءت الخطية . أكلت المرأة وأعطت رجلها فأكل .

لم تأت النتيجة كما رسم لهما إبليس ، وبدلا من اكتساب المجد بأن يصبحا كالآلهة اعتراهما الخجل من عُريهما . حلل "مارتن لوثر" ما حدث ببراعة فائقة وقال أن الخطية قلبت نظام الخليقة ، فغيرت كل الأشياء وقلبتها رأسًا على عقب . أعظم ما كان يجلب المجد للإنسان صار مصدر خزيه . كان هناك وحدة كاملة فيما سبق بين الرجل والمرأة لكن أصبح يخجل أحدهما من الآخر . دخل الخوف والعزلة فى علاقتهما مع أحدهما الآخر وفى علاقتهما مع الله . شكا فى صلاح وصدق الله والآن بدلاً من أن يحبانه صارا يخافا منه .

أسرع الله لسؤالهما : "آدم أين أنت ؟" (تكوين 3 : 9) . سأل هذا السؤال ليس لأنه لم يكن يعرف بما حدث ، بل كما نفعل نحن مع أطفالنا ، لكشف الذنب والاعتراف به . لكن "آدم" لم

يكن قد وصل إلى تلك المرحلة وحاول نقل الذنب من عليه : "إنها غلطة المرأة . غلطة المرأة التى جعلتها معى . إنها غلطتك لمنحك إياها لى" . هذا دليل واضح على أن الوحدة بين الرجل والمرأة قد انفصلت عروتها .انفصل الرجل عن المرأة وحاول إلقاء اللوم عليها وهى بدورها ألقت اللوم على الحية ، وبدأت دورة الندم المألوفة . إلقاء اللوم على الآخرين وتبادل الاتهامات دخلا حياة الإنسان .

ثم جاءت لعنات الله وأصابت مركز حياة الرجل والمرأة . كان دور "آدم" أن يتسلط على الخليقة ويحكم الأرض لكن الأرض لن تعد بعد الآن تقبل مُلكه ، فهى تثور ضده وتنبت شوكًا وحسكًا حتى يُهزم الرجل فى المعركة الغير متكافئة . يعود إلى تراب القبر ويتسلط عندئذ التراب على الرجل . بدلاً من الفرح لن يجد الرجل فى عمله إلا التعب والمشقة وخيبة الأمل . لقد سقط الملك وعمت الفوضى والتمرد فى مملكته .

هذا ما يحدث لنا اليوم كما حدث لأول رجل وامرأة . لم ننجح إلا بقدر ضئيل فى تقليل التعب الجسمانى الناتج عن العمل على حساب تزايد الألم العقلى والعاطفى .

ارتكز دور المرأة حول إنجاب الأطفال وصار مصدر تعب وألم لها . ستتعرف المرأة على أكبر مصدر للأوجاع داخل الأسرة .

ما أقنعنى بصدق هذا المقطع هو أن هذا وحده ما يفسر حالة الإنسان الراهنة . إذا أردت أن تضحك من أعماقك فاقرأ بعض تفسيرات علماء التطور عن سبب شعور الإنسان بالخزى وارتدائه للملابس . فهم استخدموا الخيال والترجيح وحدهما للربط بين ذلك وبين البقاء للأصلح.

لماذا يصر الإنسان دائمًا على العمل حتى الموت ؟ فى الشركات الكبرى اليوم تستطيع أن ترى رجالاً ممكن أن يعيشوا حياة أكثر سهولة لكنهم مع ذلك يصرون على قتل أنفسهم فى العمل .

لو الحياة البشرية تحكمها غريزة البقاء فكيف يُفسر هذا ؟ لعنة الله تدفع كل إنسان إلى حياة محبطة ومخيبة للآمال يجب أن تنتهى بالموت .

حمدًا لله ، الصورة ليست سوداء بالكامل ! لعنات الله تتضمن وعدًا ببركته . مع إن خطة الشيطان كان هدفها الإخلال بنظام الخليقة إلا أن هذه الخطة قد فشلت . أكد الله على الوضع المنحط للحية ، ينحط قدرها حتى التراب . أكد الله على سيادة الرجل على المرأة وبحديثه مع الحية أعطى للإنسان رجاءً عظيمًا : "وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها" (تكوين 3 : 15) . المرأة سقطت لأنها أطاعت الحية بثقة مفرطة ، لا يمكن حدوث هذا مرة أخرى . لحماية الإنسان وضع الله عداوة بين المرأة والحية . تم التعامل هنا مع شيء أكبر من مجرد خوف المرأة من الحيات ، فالحية كانت تمثل الشيطان وقرأنا فى كلمة الله أن بعض الرجال من ضمن الذين اتبعوا الحية كانوا من نسل الحية . هذا الانقسام وهذه العداوة دخلت الجنس البشرى وقسمته . هناك عداوة مستمرة بين من خرجوا من المرأة وأولاد "حواء" الحقيقيين وبين من اتبعوا الحية وسيدها .

سيأتى من نسل المرأة من يسحق رأس الحية ويُسحق هو نفسه أثناء ذلك العمل . الصورة لرجل يقتل ثعبانًا ويسحق رأسه لكن يسحق عقبه أثناء ذلك . إنها صورة أو رمز لكنها تشير إلى أن من هذا النسل سيأتى من يحطم الشر الذى جلبته الحية . يوجد فى العمل الذى تم على الصليب رجاء لإنهاء تلك المأساة والألم والإحباط الذى أحضرته الحية إلى العالم . باقى العهد القديم يدور حول رجاء هذا النسل راسمًا كل الأنسال التى سينتج عنها هذا النسل . من "آدم" إلى "شيث" ، إلى "نوح" إلى "سام" إلى "عابر" أبى العابرين (أو كما نعرفهم : العبرانيين) إلى "تارح" حتى "إبراهيم" و"إسحق" و"يعقوب" و"يهوذا" حتى "بوعز" و"عوبيد" و"يسى" و"داود" ثم من خلال نسل "داود" حتى "زربابل" انتظارًا للنسل الموعود .

من أول نظرة للمشهد قد يبدو أمرًا بدون أهمية أن يدعو "آدم" امرأته باسم معين لكنه يبين أن "آدم" رأى أنه من الضرورى أن تصبح المرأة أمًا لأنه كان ينتظر النسل الآتى .

كيف تتأكد أنك ستقضى الأبدية مع الله فى السماء بعد موتك ؟

هناك نقطة صغيرة تضىء الصورة المعتمة. صنع الرب أقمصة من جلد وألبس الرجل والمرأة. لم يتركهما فى عارهما وخزيهما الذى تسببت فيه خطيتهما ولكنه تصرف فورًا ليخفف من آثار الخطية .

فكر فى هاتين النقطتين : اتخذ الله بعض الخطوات لإزالة عواقب خطية الإنسان وواحد من نسل المرأة سيأتى ويهزم الحية ومن ثم نقدر أن نكتب العهد القديم .

نحن الذين نعرف أن المسيا الموعود ، يسوع ، قد جاء بالفعل سنجده أمرًا رائعًا أن ننظر إلى الخلف ونرى بداية المشهد . قصة سقوط الإنسان فى الخطية تبدو غريبة وتفوق الخيال لكنها معقولة جدًا ـ يا له من تبرير كاف !